

**من التاريخ الثقافي للقهوة
في الحجاز ومصر والشام
في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي**

الدكتور محمد م. الأرنؤوط

جامعة آل البيت - الأردن

من التاريخ الثقافي للقهوة في الحجاز ومصر والشام في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

اختلف العلماء حول الموطن الأصلي للقهوة (الحبشة أو اليمن) ومكتشفها ووقت انتشارها، ولكن لا خلاف على أن القهوة انتقلت بالفعل من اليمن إلى الحجاز ومنه إلى مصر وبلاد الشام. وقد أثار وصول وانتشار القهوة في الحجاز ومصر وبلاد الشام الخلاف بين الفقهاء / الأدباء / مما أدى إلى تراكم نتاج فقهي أدبي مهم بالنسبة لذلك الوقت، كما أدى إلى حراك / تغير اجتماعي / تمثل في بروز بيوت القهوة / المقاهي / وما صاحب ذلك من مظاهر جديدة، مما جعلها تتحول بالترجيح إلى مراكز ثقافية جديدة وهو ما تناولناه في مقالة سابقة. وفي هذا البحث يتم التركيز على موقف العلماء (الفقهاء / الأدباء) في المراكز الثلاثة المهمة للدولة المملوكية / العثمانية (مكة والقاهرة ودمشق) في المنطقة وتأثيره على المجتمع المحلي، وذلك بالاستناد إلى مصادر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

«وقد ألف فيها من أهل العصر بمكة والقاهرة وغيرها مؤلفات منهم من سلك منهج الصواب، المجرد من هوى بغض وحب ظهور، وأطنب الشعراء في مدحها وحلها نظماً على اختلاف القوافي والروى».

عبد القادر الأنصاري الجزيري (١)

«وهو مشروب الكتاب والمدرسين والمطالعين للكتب والمعلمين للعلوم الأدبية والصناعية والشعراء وأهل الأدب».

جمال الدين القاسمي (٢)

تكشف «واقعة مكة» في ٩١٧هـ / ١٥١١م على أن القهوة كانت قد وصلت الحجاز قبل سنوات على الأقل، حتى انتشرت وارتبطت بها مظاهر معينة كما هو واضح من المحضر الذي حرّر بالواقعة وأرسل إلى القاهرة حسب الأصول في تلك السنة، وهو أقدم ما لدينا من النصوص التي توفر بعض المعطيات المهمة المتعلقة بوصول وانتشار القهوة. وكان السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥١٦م) قد عين خاير بك ناظراً على الحسبة في مكة، حيث رأى ليلة ٢٢/٢٣ ربيع الأول ٩١١هـ / ١٥١١م، خلال طريقه من الكعبة إلى بيته جماعة تحتفل بالمولد النبوي و" وجد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة الشربة الذين يتناولون المسكر ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم ... فسأل عن الشراب المذكور ف قيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان وسمي القهوة يطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن يقال له البن، وأن هذا الشراب قد فشا أمره بمكة وكثر وصار يباع في مكة على هيئة الخمرات ويجتمع عليه بعض الناس بالرهن وغيره مما هو ممنوع في شريعة المطهرة^(٣).

ويلاحظ هنا على النص / المحضر الذي حرر حينئذ بالواقعة جملة من الأمور التي تستدعي الاهتمام:

- ١- أن القهوة الموجودة حينئذ في مكة كانت تصنع من قشر حب البن، أي مما ستعرف بالقهوة القشرية تمييزاً لها عن القهوة الأخرى (البنية).
- ٢- أن القهوة جاءت إلى الحجاز من اليمن.
- ٣- أن القهوة قد فشت في مكة وصارت تباع في أماكن على هيئة الخمرات / بيوت القهوة.
- ٤- أن القهوة قد أصبحت تجمع الرجال والنساء في هذه الأماكن.
- ٥- أن هذه الأماكن (بيوت القهوة) أصبحت تضم أيضاً أدوات التسلية كالشطرنج والمنقلة.

٦- أن هذه الأدوات / الألعاب لم تكن للتسلية البريئة بل أصبحت أيضاً وسيلة للرهن / القمار.

ويبدو أن كل هذه الأمور المصاحبة لانتشار المشروب الجديد قد أفلقت ناظر الحسبة (الوصي على أخلاق المجتمع)، ولذلك فقد جمع في صباح اليوم التالي "قضاة الإسلام وعلماء الأئام ممن هو يتصف بمعرفة العلم والتصوف والزهد والورع والدين ممن يقتدى بقولهم وفعلهم" مثل قاضي القضاة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي والقاضي نجم الدين بن عبد الوهاب المالكي والشيخ شهاب الدين فاتح البيت الحرام، والشيخ عبد الله اليماني الحضرمي والشيخ عبد النبي المالكي المغربي، وغيرهم لمناقشة "أمر القهوة المذكورة واجتماع الناس عليها على هذه الهيئة المشروحة". وقد اتفق العلماء في نقاشهم على التمييز بين القهوة نفسها وبين ما صاحب شربها من مظاهر وأحوال. وهكذا فقد أجمعوا على "أن اجتماع الناس على هذه الهيئة حرام اتفاقاً يجب انكاره على كل قادر عليه". و "أما الحب المسمى البن فحكمه حكم النباتات والأصل فيه الإباحة لقوله تعالى: (وخلق لكم ما في الأرض جميعاً)، ولكن تركوا الأمر للأطباء لكي يقرروا إذا كان يحصل من شرب القهوة ضرر في البدن أو العقل. وقد اقتنع خاير بك بما انتهى إليه العلماء وأحضر فوراً طبيبين من "أعيان السادة الأطباء بمكة"، هما الشيخ نور الدين أحمد العجمي الكازروني، وأخوه الشيخ علاء الدين الكازروني، فشهدا بأن المشروب المتخذ من قشر البن "بارد يابس مفسد للبدن المعتدل". وحين اعترض أحد الحاضرين على ذلك بأن البن مباح ومفيد (محرر للبلغم) قيل له أنه حتى "لو كان مباحاً فقد جرّ إلى معصية، وكل طاعة جرت إلى معصية سقطت". ولما تحقق الأمر كذلك لخاير بك "أشهر النداء بمكة المشرفة بمساعها ونواحيها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة المذكورة"، وذلك في "ضحوة يوم الجمعة المبارك الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وتسعمائة" (٤).

ويبدو من المحضر المذكور أن الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي مفتي مكة ومدرسها آنذاك كان من المدافعين عن القهوة خلال ذلك الاجتماع مع خاير بك، مما عرّضه إلى مصاعب بعد أن كَفَره بعض الحاضرين. وقد وصل الأمر إلى أن يرسل مع المحضر المذكور إلى العاصمة / القاهرة سؤال يشير إليه لاستصدار فتوى ضد القهوة. وقد جاء هذا السؤال على الصيغة التالية: "ما قولكم في مشروب يقال له القهوة مشاع شربه بمكة المشرفة وغيرها بحيث يتعاطونه في المسجد الحرام وغيره يدار بينهم بكأس من إناء آخر. وقد أخبر خلق ممن تاب عنه بأن كثيره يؤدي إلى السكر، وأخبر عدول من الأطباء بأنه مضر بالأبدان، وقد منع من شربه من يعتد بقوله من العلماء بمكة والزهاد بها، وهناك شاهد جاهل جعل نفسه واعظاً وأفتى الفساق بحل شربه، فقليل له ما تقول في هذه الإدارة على هذه الصفة فقال الشارع أدار اللبن. فقليل أخطأت لم يكن إدارة اللبن على هذه الصفة. فهل يحل شربه على الوجه المذكور أم يحرم مطلقاً لكونه مسكراً ومضر بالأبدان؟ وماذا على الجاهل المبيح لشربه، وهل يجب على ولي الأمر أيده الله تعالى إزالة هذا المنكر والمنع منه وردع هذا الجاهل ومن يقول بقوله أم لا ومن الحكم في ذلك؟"^(٥)

وحين وصل المحضر / السؤال إلى السلطان الغوري أصدر مرسوماً لنشره في مكة جاء فيه " أما القهوة فقد بلغنا أن أناساً يشربونها على هيئة شرب الخمر ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بألة ويرقصون وينكسرون ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراماً. فليمنع شرابها من التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق"^(٦).

يبدو لنا أن مرسوم السلطان الغوري، الذي لم يستجب لما ورد في السؤال المتحيز ضد الشيخ ابن ناصر الشافعي بل كان يتميز بروح توفيقية، إنما كان يعبر عن الجو العام في العاصمة / القاهرة، وبالتحديد عن اختلاف العلماء ما بين مؤيد ومعارض للقهوة وامتداد ذلك إلى الحجاز وبلاد الشام، نظراً لمكانة أولئك العلماء.

وفي هذا الإطار يبرز أولاً شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٤٦هـ) - (١٤٢٠-١٥٢٠) الذي أصبح تلاميذه، كما يقول الغزي، شيوخ الإسلام في الحجاز وبلاد الشام كابن حمزة الدمشقي وبدر الدين الغزي وابن السيوفي " مفتي الديار الحلبية " وشهاب الدين الرملي " فقيه مصر " وابن حجر الهيتمي " مفتي الحجاز وعالمها " وغيرهم^(٧). ولذلك فقد كان من المهم هنا موقفه من القهوة لما لذلك من تأثير على تلاميذه الكثر سواء في مصر أو في الحجاز وبلاد الشام. ومن المثير للاهتمام أن الأنصاري نفسه قد تقلب في موقفه من القهوة بين التحريم والتحليل. وهكذا يسوق العيدروسي في " النور السافر " رواية تفيد بأن " بعض المالكية كتب إليهم بتحريم شرب القهوة وساعده من لا بصيرة له على ذلك " مما دفع الأنصاري إلى " منع الناس من شربها " وانتشر الخبر في مصر. إلا أن المولعين بشرب القهوة راجعوه في ذلك فاستفسر أولاً ممن يشربون القهوة عنها، ولم يكتف بذلك بل " أراد الاختبار وأحضر قشر البن ثم أمر بطبخه ثم أمرهم بشربها ثم فاتحهم في الكلام فراجعهم فيه ساعة زمنية فلم ير منهم من الكلام لا تغييراً و لا طرياً فاحشاً بل وجد منهم انبساطاً قليلاً ثم زاد فلم يؤثر ". ولذلك فقد " صنف في حلها مصنفاً قاطعاً بالحل "^(٨). ومع أن هذا المؤلف لم يصلنا للأسف، إلا أن تأثيره واضح في بعض تلاميذه. ومن هؤلاء مثلاً شيخ الإسلام المحدث ابن باكتير المكي (٩٠٥-٩٨٩هـ/١٤٩٩-١٥٨١م)، الذي له أشعار في مدح القهوة^(٩)، وقطب العارفين الشيخ محمد البكري الصديقي (توفي ٩٩٣هـ/١٥٨٥م)، الذي أفتى بتحليل القهوة وله في ذلك أشعار أيضاً^(١٠).

وفي المقابل فقد وجد في محيط الأنصاري من العلماء من عارض القهوة وأثر بدوره على موقف الآخرين في الحجاز وبلاد الشام. ومن أهم هؤلاء دون شك قلضي القضاة ابن الشحنة الحلبي (٨٥١-٩٢١هـ/١٤٤٧-١٥١٥م) الذي كان قد رحل من حلب إلى القاهرة حيث درس فيها وأفتى وتولى قضاء القاهرة وصار أخيراً جليس السلطان الغوري، والذي أفتى بتحريم القهوة^(١١)، وكان من أهم تلاميذه محمد بن

سلطان الدمشقي مفتي بلاد الشام. (٨٧٠-٩٥٠هـ/١٤٦٥-١٥٤٣م) الذي كان قد تولى قضاء القاهرة في عهد السلطان الغوري نيابة عن أستاذه ابن الشحنة، والذي أفتى أيضاً بتحريم القهوة^(١٢).

وفي مثل هذا الوضع لا يعدُّ من المستغرب أن يتفاعل هذا الموقف للعلماء بين مؤيد ومعارض في وقت واحد تقريباً في القاهرة ودمشق ومكة بحكم الأستاذة والتلمذة، وأن يؤدي إلى تجاذب دين / اجتماعي، سياسي غير مألوف /.

ففي مكة، التي انطلقت منها الشرارة الأولى في ٩١٧هـ/١٥١١م، استمر انقسام العلماء ما بين معارض ومؤيد للقهوة بل أنه تعمق أكثر من خلال النتاج الفقهي /الأدبي. فقد أصرَّ بعض العلماء على تحريم القهوة كالشيخ الحكمي الكازروني الذي ألف رسالة في تحريمها، بينما أيد بعض العلماء تحليل القهوة كالشيخ أبو بكر المكي الذي ألف أولاً للدفاع عن القهوة رسالته « إثارة النخوة بحكم القهوة » ثم رد على الكازروني برسالة أخرى « إجابة الدعوة بنص القهوة »^(١٣). وفي هذا الوضع جاء مكة في ذي القعدة ٩٣٢هـ/١٥٢٤م العلم المعروف محمد بن عراق (توفي ٩٣٣هـ/١٥٢٥م) "شافعي زمانه و جنيذ أوانه"^(١٤)، الذي هاله " أن يفعل في بيوت القهوة من المنكرات فأشار على الحكام بإبطال بيوت القهوة مع تصريحه بحلها في حد ذاتها غير مرة لغير واحد "^(١٥).

ومن المثير أن ابنه الشيخ علي بن محمد " قدوة وقته في المعقول والمنقول "^(١٦) كان من أقوى أنصار القهوة في ذلك الوقت. فقد سؤل للفتوة فيها شعراً من قبل العالم الشاعر الحلبي المعروف ابن الحنبلي^(١٧) نفسه:

أيها السامي لكلتا الذرتين	بجوار المصطفى والمروتين
أفتني في قهوة قد ظلمت	حيثما شئت تعاطيها بشي

فأجاب عن ذلك بفتوى يحل فيها شرب القهوة بغض النظر عما يشوبها أحياناً

من مظاهر في أبيات شعرية منها:

فعلى ذي الأمر إنكار الـذي شابها حتى يصفى دون ديــــن
فإذا لم يستطعــــه دون أن يمنع الأصل ففعل منه زيــــن^(١٨)

وفي الواقع لقد كان لهذا الخلاف / الانقسام بين علماء مكة حول القهوة أثره في دمشق إذ كان لبعض العلماء من أنصار القهوة دور مهم في ترويجها.

وهكذا يروي لنا المؤرخ الدمشقي المخضرم ابن طولون (توفي ٩٥٣هـ/١٥٤٥م) أول معلومة عن شرب القهوة في دمشق بمناسبة زيارة قاضي مكة، وشيخ الحرم ابن الضياء (توفي ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) لدمشق، وإقامته فيها فترة من الزمن. فقد ذكر ابن الضياء ذهب عند الشيخ علي الكرواني^(١٩) لسماع المولد النبوي وشرب مع الجماعة " القهوة المتخذة من البن، ويعلق على ذلك بالقول: ولا أعلم أنها شربت في بلدنا من قبل ذلك "^(٢٠). والأهم من هذا حديث ابن طولون عن الشيخ علي بن محمد بن عراق نفسه، الذي جاء دمشق أيضاً في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٩م، و " أشهر شرب القهوة فاقندى به الناس وكثرت يومئذ حوانيتها "^(٢١). ومن ناحية أخرى، فقد جاء دمشق في ذلك الوقت العالم المكي ابن أبي كثير (توفي ٩٥٠هـ/١٥٤٢م)، حيث أقام مدة فيها تصاحب خلالها مع العالم /الشاعر الدمشقي أبو الفتح المالكي. وكان ابن أبي كثير من أنصار القهوة وممن أبدعوا فيها الأشعار. فابن العماد يذكر أن له شعر حسن منه الموشح المشهور في القهوة الذي مطلعـه:

قهوة البن مرهم الحـزن وشفا الأنفــــــــــــــــس
فهي تكسو شقائق الحسن من لها يحســــــــــــــــي

وقد عارضه أبو الفتح المالكي بموشح على وزنه وقافيته^(٢٢).

إلا أن هذا الموقف دفع بالعلماء المعارضين للقهوة كابن سلطان والشيخ يونس

العيثاوي^(٢٣) إلى الرد على ذلك بتحريم " القهوة البنية " وحتى إلى منعها بشكل رسمي. فقد جاء دمشق قاضياً في مطلع ٩٥٣هـ/ ١٥٤٥م. الشيخ محمد بن عبد الأول الحسيني الذي انضم إلى ابن سلطان والعيثاوي في تحريم القهوة، ولذلك فقد نادى بإبطالها في يوم الأحد المصادف ٧ ربيع الأول ٩٥٣هـ/ ١٥٤٥م، ولم يكتف القاضي الحسيني بذلك بل أنه عرض الأمر بإبطالها إلى السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) فورد أمره بإبطالها في شوال من سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م^(٢٤).

ولكن كل هذا لم يمنع بعض العلماء من التعبير عن تأييدهم للقهوة كالشيخ أبو الفتح المالكي توفي (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م) الذي يصفه الغزي بأنه كان " مغالياً في نصرة القهوة "^(٢٥) وتجدر الإشارة إلى أن المالكي كان بالإضافة إلى علمه الغزير في الفقه واللغة وانشغاله بالفتوى والقضاء، من أفضل الشعراء في وقته واشتهر بالهجاء حتى أن الناس كانوا يخافون من لسانه^(٢٦). ولذلك فلم يقصر في شعره بحق الشيخ العيثاوي الذي كان يحرم القهوة:

أنا أفتى بمقتضى الظاهر ————— أنها مغن —————
ليت شعري من أين للماهر ————— أنها تح ————— رَم؟^(٢٧)

ويذكر البوريني المعاصر لهما (توفي ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) أن المالكي كانت له في القهوة البنية مواقف ومشاهد مع شيخ الإسلام يونس العيثاوي فحصل بينهما شقاق طال أمده وتأجج حسده^(٢٨). ويضيف البوريني هنا أنهما اجتمعا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي و " تناقشا فيما يتعلق بالقهوة وذكر كل منهما دليله فظهر الشيخ أبو الفتح في البحث على الشيخ يونس حيث لم تكن أدلة التحريم ناهضة "^(٢٩).

وقد تصاعد الخلاف بين العالمين / الطرفين المؤيد والمعارض للقهوة خلال عهد الوالي الجديد لدمشق لالا مصطفى باشا^(٣٠) الذي بقي في دمشق خمس سنوات

(٩٧١-٩٧٦هـ/١٥٦٣-١٥٦٨م). وكان هذا الوالي كما يصفه الغزي " غشوماً سفاكاً ومع ذلك يحترم العلماء ويعظمهم " (٣١). ويبدو أنه كان من أنصار القهوة، ولذلك فقد امتدحه الشيخ أبو الفتح المالكي حين أنجز بناء الحمام الجديد في دمشق، بينما كان يتعرض له الشيخ يونس العيثاوي. وهكذا يذكر الغزي أن الوالي صلى مرة الجمعة في الجامع الجديد خلف الشيخ العيثاوي مع الدفتردار و الأغوات فتعرض العيثاوي للظلم وتحريم القهوة، فغضب لذلك الوالي وعقد مجلساً للعيثاوي دعا إليه خصمه اللدود أبو الفتح المالكي. إلا أن القاضي، كما يذكر الغزي، أنصف إلى حد ما العيثاوي مع أنه لم يكن راضياً عنه بسبب تشديده في الظلم وتعرضه له وللباشا (٣٢). ولكن مع وفاة العيثاوي في ٩٧٦-٩٧٧هـ/١٥٦٨-١٥٦٩م، رجحت كفة المؤيدين للقهوة في دمشق وبلاد الشام بشكل عام، إذ أخذت تنتشر بيوت القهوة في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بفضل الأوقاف الجديد التي عرفتھا دمشق حينئذ (٣٣)، ولم يعد العلماء / الشعراء يتخرجون من الجلوس فيها والإبداع بها والتغني بالقهوة في أشعارهم (٣٤) وفيما يتعلق بالقاهرة فقد كان في غضون ذلك الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي (توفي ٩٥٠هـ/١٥٤٣م)، الذي " اشتهر في أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم وصاروا يضربون المثل وأذعن له علماء مصر " على حد قول ابن العماد الحنبلي (٣٥)، يقود الحملة ضد القهوة و بيوت القهوة التي أخذت تنتشر حينئذ بعد أن أفتى هو بتحريمها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م. فقد وجه إليه أحد تلاميذه سؤالاً مقصوداً " ما قولكم، رضي الله عنكم ، في شراب يسمونه القهوة، يجتمع عليه الجماعة يشربونه ويزعمون أنه مباح مع أنه يترتب عليه مفسد كثيرة. فهل هذا جائز أم حرام؟ أفتونا". وقد أجابه الشيخ السنباطي حينئذ: " أنها حرام لأنها مسكرة " (٣٦).

ومن الطبيعي ألا تمر هذه الفتوى دون اعتراض من أنصار القهوة التي عبرت عنهم هذه الأبيات:

أن أقواماً تعـدوا والبلا منهم تأتـي

حرموا القهوة عمداً قد رووا إفكا وبهـــــــــــــــــتا
إن سألت النص قالــــــــــــــــوا أن عبد الحق أفــــــــــــــــتى^(٣٧)

ويبدو أن الموقف قد تصاعد بين الطرفين إلى أن اندلعت فتنة عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م، حين أفتى الشيخ السنباطي بحرمتها وأكد على ذلك في مجالسهم بالأزهر، فتعصب جماعة من العوام لما سمعوا منه ذلك وخرجوا إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم فكسروا أوانها وضربوا جماعة ممن هناك فقام بسبب ذلك فتنة كبيرة^(٣٨). ولتجنب هذه الفتنة أحيل الأمر إلى قاضي القضاة محمد بن الياس الحنفي، الذي ناقش العلماء أولاً ثم أحضر جماعة ممن يشربون القهوة فـ " أمر بطبخها في منزله وسقى منها جماعات بحضرته وجلس يتحدث معهم معظم النهار ليختبر حاله فلم ير فيهم منهم تغييراً أو شيئاً منكراً فأقرها على حالها "^(٣٩).

ويبدو أن هذه الفتوى قد أعادت الاعتبار للقهوة وشجعت أنصارها على التمتع بشربها في بيوت القهوة/القهاوي. وهكذا يشير عبد الغني في كتابه " أوضح الإشارات " عن الوالي الجديد خسرف باشا الذي تولى حكم مصر خلال ٩٤١-٩٤٣هـ/١٥٣٤-١٥٣٦م، أنه " في زمنه فشت القهوة والقهاوي "^(٤٠).

ولكن هذا الوضع انقلب من جديد في سنة ٩٦٨هـ/١٥٧٢م، مع الفارق أنه لم يكن هذه المرة نتيجة لفتوى بل لحكم سلطاني. فقد أورد الجزيري المعاصر للأحداث في " الدرر الفرائد " عن ورود حكم سلطاني مفاجئ إلى القاهرة في مطلع شعبان ٩٦٨هـ/١٥٧٢م، " يقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات، ويغلق أبواب الحانات والخانات، ومنع استعمال القهوة والتجاهل بشربها وهدم كوانينها وكسر أوانيتها ". ولتنفيذ هذا الحكم، كما يضيف الجزيري، " كان العسس على الفحص وبيوتها وباعتها شديداً جداً، وضربوا وأشهبوا، وهدموا البيوت، وكسروا أوانها المحترمة الطاهرة التي هي مالٌ لرجل مسلم... ولم يبلغن فعلهم مثل ذلك في أوان الخمر

والبرش والحشيشة^(٤١). ويتضح من النص أن الجزيري ساخط على التعسف في منع القهوة وإغلاق المقاهي، خاصة وإن السلطة العثمانية كانت تتساهل مع شرب الخمر والبرش والحشيشة معللةً ذلك بأن منع البرش يؤدي إلى موت المدمنين عليه وحرمان الخزينة من الضرائب المفروضة عليه^(٤٢).

ويبدو أن الموقف قد حسم أخيراً لصالح أنصار القهوة، حيث عبّر عن هذا شاعر القاهرة إبراهيم بن المبلط (توفي سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م) بأبيات يقول في مطلعها:

أرى قهوة البن في عصمنا على شربها الناس قد أجمعوا^(٤٣)

الهوامش

١- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن ابراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، ج ٢، الرياض (دار اليمامة)، ١٩٨٣، ص ١٠٢٥.

ولد المؤلف سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م، في القاهرة وكان والده قد درس الطب وعمل في البيمارستان المنصوري بالقاهرة ثم تولى إدارته وانتقل بعدها في ديوان الإنشاء ثم في ديوان إمرة الحج. وقد نشأ المؤلف في رعاية أبيه حيث كان يرافقه / يساعده في ديوان الحج، مما وفر له مادة واسعة استفاد منها في تأليف كتابه الضخم "الدرر الفرائد". للمزيد عنه وعن مؤلفاته الأخرى انظر مقدمة المحقق/ حمد الجاسر، ص ٩-٣٢.

٢- جمال الدين القاسمي، رسالة في الشاي والقهوة والدخان، دمشق، ١٣٢٢هـ، ص ١٧.

٣- عبد القادر محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، عمدة الصفوة في حل القهوة، مخطوطة في معهد المخطوطات العربية، رقم م ٢١٥٣١، ورقة ٢٨-٢٩.

٤- المصدر السابق، ورقة ٣١.

٥- المصدر السابق، ورقة ٣٧-٣٨.

٦- المصدر السابق، ورقة ٣٨-٣٩.

٧- نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل

- ١٤- انظر ترجمته لدى العيدروسي، النور المسافر، ص ١٩٢-١٩٧.
- ١٥- الجزيري، عمدة الصنفوة في حل القهوة، ورقة ٢٢.
- ويضيف الجزيري هنا أن هذا الوضع لم يستمر سوى عدة شهور، وبالتحديد إلى وفاة ابن عراق في صفر ٩٣٣هـ، إذ "رجع الحال إلى ما كان عليه ولم يزل في تزايد إلى وقتنا هذا".
- ١٦- انظر ترجمته لدى العيدروسي، النور المسافر، ص ١٩٣-١٩٥، والغزي، الكواكب السائرة، ج ٢، ص ١٩٧-١٩٨.
- ١٧- رضي الدين محمد بن الحسن المعروف بابن الحنبلي (٩٠٨-٩٧١هـ) فقيه وأديب ومؤرخ مشهور في حلب اعتبر "عالم الشهباء في عصره"، له مؤلفات كثيرة من أشهرها "در الحبيب في أعيان حلب"، وله ديوان شعر يرصد فيه قضايا عصره بما في ذلك القهوة:
- ابن الحنبلي، درر الحبيب في أعيان حلب، تحقيق محمود حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عيارة، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٣، ص ٧م-٢٠م؛ راغب الطباخ، إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، صححه وعلق عليه محمد كمال، حلب (دار القلم العربي)، ج ٦، ص ٦٢-٧٢.
- ١٨- العيدروسي، النور المسافر، ص ١٩٤-١٩٥، وانظر أيضاً الغزي، الكواكب السائرة، ج ٢، ص ١٩٨-١٩٩.
- ١٩- الشيخ علي الكيزواني من شيوخ الصوفية الشاذلية في عصره. ولد سنة ٨٨٨ هـ/م. وتقل ما بين حماة وحلب ودمشق ومكة، حيث دفن سنة ٩٥٢ هـ: الغزي، الكواكب السائرة، ج ٣، ص ٢٠١-٢٠٣.
- ٢٠- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ١٠، ص ٣٥٠.

- ٢١- الغزي، الكواكب السائرة، ج٢، ص ١٨٩.
- ٢٢- ابن العماد، شذرات الذهب، ج ١٠، ص ٤٠٤؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج٢، ص ١٧٩-١٨١.
- ٢٣- الشيخ يونس العيثاوي شيخ الإسلام في عصره، ولد سنة ٨٩٨ في عيضا البقاع وتلمذ على شيوخ عصره كابن القاضي وابن حمزة وغيرهما. اشتغل في الفقه والوعظ واشتهر بخطابة الجامع الجديد / المعلق في دمشق. له عدة رسائل في الفقه وأشعار، وألف رسالة ضد القهوة حيث " كان يعلن بالإنكار على شربها على المنبر ". توفي سنة ٩٧٦هـ أو ٩٧٧هـ. الغزي، الكواكب السائرة، ج٢، ص ٢٢-٢٢٣.
- ٢٤- الغزي، الكواكب السائرة، ج٢، ص ٣٩.
- ٢٥- المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢.
- ٢٦- للمزيد عن المالكي وأشعاره انظر: الغزي، الكواكب السائرة، ج٣، ص ٢١-٢٦ والبوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٥.
- ٢٧- البوريني، المصدر السابق، ج١، ص ٢٥٣.
- ٢٨- المصدر السابق.
- ٢٩- المصدر السابق.
- ٣٠- لالا مصطفى باشا من وزراء / قادة / ولاية الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولد في صوقول في البوسنة، وبدأ صعوده تحت رعاية الصدر الأعظم أحمد باشا (٩٦٠-٩٦٢هـ / ١٥٥٣-١٥٥٥م). عين في ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م مربياً (لالا) للأمير سليم، ولذلك فقد برز أكثر بعد

تولي الأمير سليم للسلطة. وهكذا فقد عين والياً على الشام ثم وزيراً في استنبول في ١٥٦٩م ثم قائداً للجيش العثماني المرسل إلى اليمن في السنة ذاتها، وبعد خلافه مع سنان باشا تولى الحملة لفتح قبرص خلال ٩٧٨-٩٧٩هـ/١٥٧٠-١٥٧١م، ثم فتح جورجيا ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، وتوفي أخيراً في ٩٨٨هـ/١٥٨٧م، دون أن يتوج حياته بالصدارة العظمى. تزوج حفيدة السلطان قانصوه الغوري وحظي بثروة واسعة أنفق منها الكثير على بناء أوقاف له في عدة ولايات. وفيما يتعلق ببلاد الشام فقد بنى منشآت مختلفة دينية وثقافية واجتماعية:

S.J.Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.1, Cambridge 1976, pp. 180-181.

كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعه خليل مردم بك، دمشق (مطبعة الترقى)، ١٩٢٥.

٣١- الغزي، الكواكب السائرة، ج ٣، ص ٢٠٧.

٣٢- المصدر السابق.

٣٣- تميزت تلك الفترة ببناء منشآت وقفية كثيرة لولاية دمشق من الوزراء الكبار كأحمد باشا ولا لا مصطفى باشا ودرويش باشا وسنان باشا ومراد باشا التي تضمنت بيوت القهوة كمصدر للدخل، مما يدل أنها أخذت تجتنب الدمشقيين. وهكذا تكشف وقفية الوالي أحمد باشا (التي تعود إلى سنة ٩٨٣هـ-١٥٧٤م) إلى ما يمكن اعتباره أقدم بيت للقهوة معروف لدينا في دمشق، حيث كان يقع في السوق الجديد (سوق السبائية / سوق الأروام).

للمزيد حول ذلك انظر: محمد م. الأرناؤوط، معطيات جديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر- وقفية أحمد باشا، مجلة دراسات تاريخية،

عدد ٥١، دمشق ١٩٩٥، ص ١٩٣-٢٢٣.

٣٤- يروي البوريني على سبيل المثال في حديثه عن الشيخ أحمد العناياتي النابلسي أنه " كانت عادته في كل يوم على الصباح أن يجيب في الغالب داعي الفلاح ثم يسير إلى بيت من بيوت القهوة يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقى والجلوة، ويشرب من قهوة البن أقذاح، ويرتاح بها كأنه عاقر راحا ثم يشرع في الكتابة ": البوريني، تراجم الأعيان، ج ٢، ص ٨٩٣.

٣٥- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ١٠، ص ٤٠٢.

٣٦- الجزيري، عمدة الصفوة في حل القهوة، ورقة ٢٤.

٣٧- المصدر السابق، ورقة ٢٥.

٣٨- المصدر السابق، ورقة ٢٤.

٣٩- المصدر السابق، ورقة ٢٥.

٤٠- أحمد جليبي عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق د. فؤاد محمد الماوي، القاهرة ١٩٧٧، ص ١٤٧.

٤١- الجزيري، الدرر الفرائد، ج ٢، ص ١٠١٨-١٠١٩.

٤٢- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠١٩.

٤٣- الغزي، الكواكب السائرة، ج ٣، ص ٩٢-٩٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ١٠، ص ٦٢٣.

